العلوم

فى النبات ، وحشية وأنيسة

للدكتور احمد زكى

كلما كثر السكان وضاقت المناطق العامرة بالناس ، تزحزحوا عن أوطانهم طلب الوسعة فى الأرض وما يستتبعها من الوسعة فى العيش ، والاستعمار دأب الانسان من قديم . الا أن صفات العصر وأساليب الوقت فى مرافق الحياة كانت تؤثر فيه فيمتد حينا ويسرع حينا . فلما كانت الدواب وسيلة التنقل فى جنبات اليابسة ، والشراع حامل الانسان على ظهر الماشية ودفع الانسان لما يلى من وحش جائع وناب كاشر سيفاً ورمحاً ، وادانه فى تذليل الارض مهولا وفأسا ، وسقايته لها رهينة بما يجد عفوا من نبع يتفجر او نهر يزخر ، أو مطر يهطل حينا ويمتنع حينا ، وعلمه بزراعتها علما يسير اعلته اياه التجربة المتدة والاخطاء المتكررة ، كان استعماره للارض بطيئا ، وانتشار الجنس الانسانى على هذه الكرة محدودا . وكان يزيد فى بطىء استعماره وقلة انتشاره ما فى طبيعته من حب ارتباط بأرض ألفها وضابط اعتادها ، وذكرى لماضيه آنس بها بحاضره ، وعادة يسرت حاضره فأمل اضطرادها فى تيسير مستقبله . أما وقد تغيرت صفات العصر ، وتبدلت أساليب العيش ، فاصبح البخار دابته على اليابسة والمائعة ، والبنزين مطيته يشق به الارض ويفلق الهواء ، واصبح دفاعه الحديد الصارخ والجمر الطائر ، واداته فى تذليل الارض المكنات الكثيرة تديرها الأكف القليلة ، وسقايته لها ترتبط بأرادته أكثر من ارادة الماء ، وترتهن بمشيئته أكثر من ارتهانها بالأمطار والانواء ، وصار علمه بزراعتها علماً غزيراً علمته اياه التجربة المقصودة والاداة المنظمة ، فقد أسرع الاستعمار اسراعا لم يعهده التاريخ ، حتى ليُخشى أن لا تبقى رقعة من الارض لا تطؤها قدم مستعمر . حتى الروابط التى كانت تربط الانسان بأرضه الاولى ، فتمنعه أن ينزح النزحة الاولى ، قد هانت بسهولة المواصلات وسرعتها لانه اذا هو استبدل جديداً بقديم يستطيع الآن الى حد كبير ان يجمع بين موطن عتيق وموطن مستحدث ، ويمد خيوطه طويلة ميسورة الى سلف وراءه وخلف أمامه ، ويؤلف فى سهولة بين ما استدبر من أمسه واستقبل من غده

جميلٌ أن يرى الانسان الحضارة تعم الارض ، ومعجبٌ مُزْهٍ أن تلف العمارة المعمورة لفّ الهواء لها ، ولكنها خسارة كبرى كذلك أن تذهب هذه الحضارة والعمارة بكل حيوان يستأنس ، وبكل نبات لا يخضع لترويض الانسان . لقد ضاع من أمثال هذا الحيوان ما ضاع ، أو قل حتى آذن بالضياع ، وانقرض من النبات ما انقرض ، أو آذن بالانقراض وارتفعت أصوات فى العصور القريبة تنبه الى ذلك وتطلب حماية المستوحش من الحيوان ، والنبات على السواء ، وانعقدت اخيراً بلندن جمعية غرضها حماية الأصقاع الافريقية الوسطى من التعمير وحفظها من عبث المدنية ، وصيانتها صيانة الاثر الحى الخالد ، وهى صيانة بالسلب ، وحفظ بالترك ، فلا تكلف دينارا ولا درهما . وفى الحق كيف تجوز علينا صيانة المعابد ورعاية الهياكل والاعتزاز بصحاف من خزف ودوارق من صلصال وهى جميعا من صنع الانسان المتحضر ، فلا تزيد أعمارها عن قليل من آلاف السنين ، ثم لا نصون آثارا أذهب من هذه فى القدم وأبعد فى العراقة من الانسان . تلك يستعاض عنها اذا افتقدت ، ويقام على انقاضها اذا تهدمت ، أما هذه فما ذهب منها فلغير رجعة ، وما فنى فلغير ايجاد . تلك تعيدها الصناعة ، وهذه لا يعيدها الا الخالق ، والخالق ليس من عمل الانسان .

وفوق هذا فالحيوان المستوحش والنبات البرى ، ان رثت صلتهما بالانسان فى نظام الخليقة العام، وتباعدت منابتها عن منبته فى جدول الاجناس ، فان بينهما صلات قربة وبين ماانستأنس الانسان منهما فكل حيوان مستأنس كان مستوحشا يوما ما ونحن الذين أنسناه، وكل نبات كان مستوحشا كذلك يوما ما ونحن الذين ألفناه؛ ولا يزال يوجد فى الوحشى من الحيوان والنبات أشباه ونظائر لتلك التى تعيش بيننا فى رخاوة ودعة ، ولكن هذه النظائر كانت قليلة فزادت قلة ، وهذه الاشباه كانت نادرة فزادت ندرة ، فاذا نحن أذنا للعمارة ان تمتد بلا حد فقد قطعنا آخر الخيوط الواهنة التى تربط حاضر الأحياء بماضيهم ، وطمسنا على رقعة الاحياء الخانات القليلة الباقية التى فاتها الطمس، وجئنا على آخر الأدلة الحية على أصل الانسان والحيوان والأواصر التى بينهما

متى كان تأنيس النبات وأين كان؟ ومن أول من قام به — كلها أسئلة لايستطيع أحد اجابتها الا بالحدس والظن وإعمال الخيال . والخيال اذا أصاب مرة أخطأ مرارا . ولكن مما لاشك فيه ان هذا كان والانسان فى حداثته الأولى ، قبل التاريخ المعروف . وقبل العصور التى سجل أحداثها الحجر . ففى مقابر المصريين فيما قبل عصر الأسر وفى العراق فى منازل عريقة فى القدم . وكذلك فى الحفائر عن بقايا سكان مناطق البحيرات السويسرية والايطالية كشفوا عن حبوب من القمح فى درجة عالية من التقدم النباتى ما كان يبلغها لولا تدريب سبق . طال حتى ضاع أصله فى الأحقاب القديمة وامتد الى الوراء حتى اختفى فى حلوكة العصور الأولى . انمكتشفات الانسان كثيرة واختراعاته الخطيرة عديدة ، وكلها كان لها نصيب فى تقدم الانسان ، وقد تختلف فى المفاضلة بين هذا المخترع وذلك المبتدع ، ولكن قليل من يمارى فى أن اكبر اكتشاف وأخطر ابتداع ساق قدم الأنسان الى أول الدرجات من سلم الرقى الذى نراه اليوم ، ذلك الاكتشاف الذى انحى أصله بانحاء الحياة الأولى ، ووضع سره مع سر الانسان القديم ، ذلك امكان تأنيس النبات — تلك الحقيقة التى فطن اليها آباؤنا الأولون من ان بعض النباتات يمكن ترويضها وتمريضها وتنشئتها وهدهدتها فتعطى ثمرات كثيرة وغلات وفيرة تكون غذاء مأمونا مضمونا يسكن الانسان اليه فى المكان الواحد العام بعد العام ؛ لايقلقه الترحل ولا تلاقفه السهول والجبال . تلك الحقيقة التى خلقت اولى الصناعات واكثرها تأصلا وعراقة ، تلك الزراعة التى كانت ومازالت أس المدنيات جميعا ،

ان النباتات القابلة للتأنيس قليلة ، وقليل من هذه ما يعطى حبا أو ثمرا يصح أن يتخذ غذاء أساسيا كافيا للانسان . وهذه متفرقة على سطح البسيطة ، وهى كالحيوان لها مواطن خاصة من سطح الارض ، فنهـا الافريقى والاسيوى والامريكى ، وفى هذه المواطن دون سواها نشأت المدنيات النابتة ، حتى ليكاد الفكر والبحث يردّ كل مدنية قديمة الى حب أساسى ، وكل حضارة نابتة الى ثمر أصلى . فالمدنيات الامريكية قبل كولومبس تركزت فى الاصقاع الاستوائية وامتاز كل منها بغلة كانت أساسا لمدنية ، فغلة المكسيك الذرة ، وغلة بوليفيا واكوادور وبيرو البطاطس ، فحضارة المكسيك العتيقة التى كشفت عنها الحفائر الحديثة حضارة ذرويه ، وحضارة أمريكا الجنوبية حضارة بطاطسية (شكل ٢)

وليس معنى هذا أن تلك البلاد لم تنتج من النباتات غير الذرة والبطاطس ، فقد أنتجت أنواعا من الخضر والفواكه لكنها ثانوية فى تغذية الانسان . وفى الدنيا القديمة ، أو

التى لا نزال نسميها الدنيا القديمة على الاعتبار الخاطىء ، ان

« شكل ٢ »

أمريكا لم يكن لها حياة مستقلة كذلك فى القدم قبل أن اكتشفها « كولومبس » تركزت فيها المدنيات حول المناطق التى تنتج أغذية أساسية لحياة الانسان . وهى القمح والشعير والقرطم والشيلم وتنبت فيما حول البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى والجانب الجنوبى الغربى لآسيا ، والارز فى الهند والصين . ولا نزال الى اليوم نجد نوعا من الارز البرى ينبت « شيطانيا » فى الهند وفى جنوب الصين ؛ وهو لاشك جدّ لانواع الارز الحديثة . كذلك نجد فى آسيا الصغرى وفى الجنوب الغربى لآسيا أنواعا من النبات تمت الى القمح والشعير والقرطم بوشائج من الرحم على بعدها بيّنة واضحة

ومن المدهش أن نباتات أمريكا فيما قبل « كولومبس » أى عام ١٥٠٠ ميلادية تختلف كل الاختلاف عن نباتات الدنيا القديمة . فلم يكن بينهما نبات مشترك واحد . كان فى أمريكا الذرة والبطاطس والبطاطا وأنواع من الفول والطماطم والفلفل والفول السودانى والأناناس والجوافة والكاكاو وغير هذه من أجناس أخرى غير مشهورة لدى الناس . ولم يكن فى أمريكا فى تلك العهود من حيوانات الدنيا القديمة غير الكلب . وكان فى الدنيا القديمة من النباتات المستأنسة القمح والشيلم والشعير والقرطم والدخن ، والارز وكلها حبوب أساسية فى تغذية الانسان ، واللفت والبصل والسبانخ والخس والحمص والعدس والسمسم وغيرها

قال العمدة النباتى « ألفونس دى كندول » فى كتابه الأثرى « أصل النباتات المزروعة » عام ١٨٨٢ : « وفى تتبع تاريخ هذه النباتات لم أجد أثرا لصلة كانت بين سكان الدنيا القديمة وسكان الدنيا الجديدة فيما قبل العصر الكولومبى » وقال العالم الأحدث فافيلوف (١٩٣١) : « ان الزراعة فى امريكا قبل العهد الكولومبى نشأت نشوءا مستقلا عن الزراعة فى الدنيا القديمة ، فاذا نحن قلنا مع أغلب البحاث ان سكان امريكا القديمة أتوا من آسيا وجب ان نقول أيضا أنهم أتوا فارغة أو طابهم من كل نبات آسيوى . ومعنى هذا ان النبات فى الدنيا الجديدة استأنست عن أجناس وحشية نبتت فى تلك الاصقاع ذاتها » ولكن لما فتح كولومبس امريكا للعالم القديم ، وصح عند الناس ان بلداً كبيرا واسع الغنى خيبئ الثروة قد انكشف ، ركبوا اليه افواجا بأهلهم ومتاعهم وحملوا معهم ما عرفوا من الحيوان وما ألفوا من النبات وبذوره ، وبذلك نقلوا المستأنس من الحيوان والنبات الى ذلك البلد الجديد ،

« شكل ٣ »

ورجعوا الى بلدهم القديم بنبات تلك القارة الجديدة الواسعة